بيت العنكبوت

_ هل في الحديث معكِ يكمن الشفاء حقًا؟

_ ربما، جربي، ماذا ستخسرين؟!

قالت بعد لحظات من الصمت:

_ حسنًا، من أين أبدأ..؟!

_ كما يحلو لكِ..

أغمضت (حنان) عينيها، واسترخت على ذلك الكرسي، وتركت نفسها لأول مرة ..

كنتُ في عامي الجامعي الأخير، أعمل في ذات الوقت (كاشير) في (هايبر ماركت) لا يبعد كثيرًا عن بيتنا، أمي غارقة طوال الوقت في أعمالها وأموالها، وأبي هاجر منذ أكثر من عشر سنوات، لا زالت بقايا ذكرياتي معه تقيم عزاءً في قلبي، كانت أمي تراوغ كلما سألتها عن سبب هجره لنا، حتى أصبحت لا أسأل، ولم يعد يهمني أن أعرف..!

لا يشغل تفكيري سوى (طارق) أخي الطالب المتفوق في الثانوية العامة، لا أريد أن يصبح مثلي، كنت أقول لنفسي: «يكفي هذا البيت مشوّه نفسيّ واحد»، كانت أمي تعطي (طارقًا) المال دون حساب؛ لذا كان شجارنا لا ينتهي.

كنت أقابل ذلك الذي أجد في رؤيته متنفسًا لي، (سامي) زميل الجامعة الذي تقدم لخطبتي لكن أمي التي لا تعرف لغة إلا المال رفضته، ينجح دائمًا في امتصاص غضبي، حتى قال لي ذات يوم:

_ لا بد من إنهاء خلافاتك مع أمك.

_ أنت تعرف وجهة نظري، لا أريد أن يضيع طارق..!
_ إنه ابنها أيضًا، فكّري في قبول العمل معها، ربما وقتها تقل الخلافات بينكما.

تحدثنا كثيرًا في هذا الأمر، وبدا لي أنه اقتنع بوجهة نظري، تكررت منه بعد ذلك مواقف غريبة، لكنني لا أريد أن أكرهه، أو إن شئتِ فقولي: أريد -ولو كذبًا- أن أعيش قصة حب، أخرج بها من واقع يقبض على أنفاسي!

_ ما أخبار المذاكرة يا بطل؟
_ يتوجب عليكِ من الآن أن تناديني "دكتور طارق".
_ هذه أمنيتي الوحيدة يا دكتور طارق.

أحاول دائمًا أن أكون له الصديقة قبل الأخت، كان يبدو لي أنني نجحت بشكل ما، حتى دخلت عليه الغرفة -ذات مساء- يجلس على مكتبه، وأمامه عصير الفراولة الذي يحبه كثيرًا.. طرقت الباب ودخلت -كعادتي- فإذا به يرتبك ارتباكًا شديدًا حتى سقط الهاتف من يده.

_ من ذا يشغل عقل طبيبي؟!
_ هو .. أقصد .. هذا أحمد يخبرني بإلغاء درس الكيمياء غدًا.
_ إذا لنجعل نزهتنا الأسبوعية غدا عوضًا عن الجمعة، ما رأيك..؟!
_ لا .. لا غدًا ولا الجمعة.
_ لماذا؟!
_ الامتحانات على الأبواب..

أحسست أنه يخفي شيئًا، لكن ما هو؟! لست أدري.

في الصباح انتهزت أول فرصة ودخلت حجرته، قلبتها رأسًا على عقب، لكن لم أعثر على شيء بإمكانه أن يبرر القلق الذي طوّق قلبي.

كان (طارق) محبًّا للطعام، دائمًا يطلب أصنافًا ترهق (دادة عفاف) -المرأة طيبة القلب التي تعمل عندنا منذ زمن-، لكنه أصبح هذه الأيام عازفًا عن الطعام قليلًا، أسأله فيتعلّل بالمذاكرة..!

بدأت ألاحظ شحوب وجهه وتقلّب مزاجه، لم يعد يطيق الجلوس في البيت، يتعلّل بالدروس والمذاكرة مع صديقه (أحمد)، ظل الشك ينازعني، اتصلت بأحد معلميه، فكانت المفاجأة:

_ توقف طارق عن حضور درسه منذ شهر مضى..!

لم أصدق ما سمعت، هاتفته، طلبت منه أن يعود إلى المنزل، سألته بهدوء متصنع:

_ لماذا تركت درس الكيمياء؟ هل ذهبت لمعلم آخر؟!

_ لن.. لن أكمل دراستي، لقد رتبت كل شيء، سأنفذ مشروعًا ناجحًا .. ونسافر أنا وأنت....

فقدتُ السيطرة على أعصابي تمامًا، انفجرتُ في وجهه كبركان ثائر، فتركني وخرج.

عندما علمت أمي بالأمر، لم تغضب كثيرًا، رأت أنه بدأ يفكر بشكل عملي، ولم يفتها أن تُحمِّلني المسؤولية، غير أنني توسَّلتُ إليها، وطلبت منها مجددًا ألا تعطيه مالًا إذا طلب.

مرّ أسبوع كامل.. لا حديث بيننا، حتى قررت أن نخرج في نزهة لنتحدث بعيدًا عن البيت.

_ يجب أن نتحدث، سيعود أخي إلى حضني.. لن يستطيع أحد أن يسلبه مني.

هكذا كنت أقول لنفسي قبل أن تطرق (دادة عفاف) باب حجرتي.

كانت الصدمة كفيلة بأن تقتلني حين أعطتني لفافةً وَجَدَتْها على سرير (طارق) وهي تنظف حجرته صباحًا، مسحوق أبيض كالسكر المطحون غير أن له رائحة غريبة، انطلقت نحو النادي، أهيم على وجهي كالتائهة، قابلت (سامي)، أخرجت اللفافة من حقيبتي، فانتفض واقفًا من مكانه فاغرًا فاه، فجذبته من يده ليجلس، وقد أيقنت من ردة فعله أن هذا لم يكن سوى مخدرات، انهال عليّ بالأسئلة، أخبرته أني وجدتها في غرفة (طارق)، فرأيت في عينيه نظرة كانت كفيلة بأن تجعلني أتركه وأنصرف..!

كانت الساعة الحادية عشرة مساءً، وأنا أطلب من سائق التاكسي أن يسرع، اتصلت (دادة عفاف)؛ لتخبرني أن (طارقًا) يتشاجر مع أمه، وقد علا صراخهما الذي سمعته عبر الهاتف، وصلت إلى المنزل في وقت قياسيّ، كان المشهد صادمًا .. طارق يمسك بسكين يوجهها نحو أمه وهو يصرخ بشدة طالبًا منها أن تعطيه ما يريد، وهي تصرخ في وجهه محاولة إبعاد السكين عنها.

صرخت كالمجنونة بصوت ارتجَّ له البيت، وأنا أجري نحوهما:

_ طارق ..

لكن (طارقًا) لم يعبأ بصراخي، وغرس السكين في صدرها وهو يردد باكيًا:

لم تكن أمي ولو ليوم واحد .. كانت -فقط- مصدرًا للمال!

جففت (حنان) دموعها، وهي تقول بروح محترقة:

_لم يصبح أخي طبيبًا، بل أصبح قاتلًا، ثم أضحى قتيلًا، بفعل السم الذي كان يتعاطاه، أُغتيل حلمي أمام عينيّ وأنا مكتوفة الأيدي، المضحك المبكي أن أبي عاد أخيرًا، هل تعلمين ما الذي أعاده؟! عاد ليرث زوجته، نكاية فيه، بعتُ لنفسي كل أملاكها، نعم أصبحت مزورة، سأتبرع بالمال كله، سأتخلص من تلك اللعنة تمامًا..!

_ اهدئي، لا تتخذي أي قرار الآن، ستأخذين حبة واحدة يوميًا من هذا الدواء، وأراك الأسبوع القادم إن شاء الله.

خرجتْ من عيادة الطبيبة النفسية، تجر أذيال الألم، ما إن وطأت قدماها الدقيقتان أرض الشارع حتي دهستها سيارة كانت في انتظارها مذ دخولها العيادة..!